قصور فوق رمال متحركة

(مجموعة نـصيـة)

تأليف

زانـة العزاوي

الطبعة الأولى: ٢٠١٨م

كتاب :"قصور فوق رمال متحركة"

الكاتبة: زانة العزاوي

الطبعة الأولى: القاهرة / ٢٠١٨م

تصميم الغلاف: عصام أمين

مراجعة وتدقيق لغوي :د/محمد مجاهد مهدي

المستشار القانوني : أحمد سامي الغرياني – إبتسام رحمة

التنفيذ والإخراج الفني: دار الاحتواء للنشر والتوزيع

المدير التنفيذي :د/نجلاء نبيل

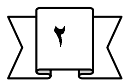
رئيس مجلس الإدارة : الشاعر/ شريف الصاوي

Dari٧twa٢@yhoo.com

www.facebook.com/Dari٧twa٢

رقم الإيداع ١٧١٠٠/ ٢٠١٨م

الترقيم الدولي / ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٥٦-٨٢-٦



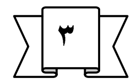


ثورة مصرية تشرق إبداعا على الوطن العربي

دار النيل والفرات للنشر والتوزيع
أسسها الشاعر ناجى عبد المنعم عام 2017

رئيس مجلس الإدارة
ناجى عبد المنعم

رخصة مزاولة مهنة:58365 – سجل تجاري: – 13242 / 2017 – بطاقة ضريبية: 35—01—572
عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018
هاتف:01011256943 – 01116202218 – 01202541192 تليفاكس:020554372901
alnilwaalfourat@gmail.com alnilwaalfourat
المقر الرئيسي:ج.م.ع محافظة الشرقية – العاشر من رمضان – مجاورة 13 – امام سنتر الـ13 – عقار 304



الإهداء

إلى..

صفاء الروح

والعقل والقلب.

صفاء.. نور عيني.

زانة العزاوي

قصور فوق رمال متحركة

"الزُّودْيَاكْ" كل أبناء المدن الساحلية الشمالية ينطقون الكلمة بالنغمة الصوتية الجوفاء نفسها: "الزُّودْيَاكْ"؛ لعبة للمتعة على أمواج المتوسط، من السعيدية إلى رأس الماء إلى أركمان إلى الحسيمة إلى...

كفى...، لا

"الزُّودْيَاك" في طنجة شيء آخر تمامًا، وأمرٌ آخرُ تمامًا، وكفَى من نطق اسم هذه الآلة الحربية الخيالية بنغمة صوتية جوفاء. آه... كم للـ"زُّودْيَاك" من معنى!، بل من معانٍ لا يعرفها إلا المنسيون، إلا من زار العالم الآخر..آه!.

العام الخامس عشر من عُمري لم أحتفل فيه بعيد ميلادي، لكنه رغم ذلك استوطن ركنًا من ذاكرتي إلى الأبد، لقد فرَّقني "الزُّودْيَاك" سَنَتَهَا عن أعزِّ الناس من أصدقاء

وأقارب، لم أستطع في عاميَ ذاك أن أغالب الشعور الذي لَفَّني كغشاوة رمادية تتجاوز الحزن، تتجاوز الأسى، إلى نوع من الغربة أو اليُتْم، رغم وجود الوطن والأحباب.

شيء واحد أفلح في ملاحقتي إلى داخل غشاوتي الرمادية؛ إنه شبح الليل الأسود البارد، هل تعرفون سواد الليل؟ يُخَيَّلُ إليكم! لا يعرف سوادَ الليل غيري، وأمثالي الذين زاروا مشارفَ العالم الآخر.

أذكرُ سوادَ الليل سواد لا مثيل له، وصوت الأمواج صوت لا مثيل له، وآيات القرآن.. يا لطعمها في تلكَ الأثناء! وأنواعَ الأدعية والتمْتمات للوصول إلى بر الأمان.

سوادٌ وهديرٌ وتلاوةٌ ودعاء، هي أمورٌ لو صادفتُها للمرة المليون في اليوم نفسه؛ لأحدثَتْ بداخلي الشعور نفسه بخوفٍ مهول، هو الخوفُ من الموت بحرًا.

تحققتْ انطلاقتُنا بعدَ أربعة أيام قضيناها في بناية قُرب الشاطئ تبدو مَخزنًا أو مُستودعًا لشِباك الصيد، كانت كلُّ ليلة بالبناية بامتداد سنة أو أكثر.. كُنَّا حوالَيْ خمسين إلى ستين شخصًا، وكنتُ أنا أصغرهم سنًّا.

كانت ظروفُ كلِّ واحدٍ منَّا تُنْسينا ظروفَ الآخر، وفهمنا في صمتٍ أنَّنا لم نأتِ عبثًا، ولا جنونًا أو تهورًا، وأن هناك خيطًا يربطُنا جميعًا، وأن اليأسَ في العثور على موردِ رزق كريم بالوطن أو "البلاد". نجح في إقناعِنا بالمغادرة، بل في اقتلاعنا من تربتنا التي كواها التصحُّر.

أصبحتِ الضفة الأخرى قبلةَ أحلامِنا، وجنَّتَنا الموعودة..

توالى شريطُ عُمري المهدورِ أمامَ ناظري، وأنا مُنْزَوٍ في ركن بالبناية. لعلَّ ذرَّةَ حنينٍ تباطأتْ في التلاشي من صَدْرِيَ الأجوفِ.

هل كنتُ أبحث في الشريط عن ومضةٍ تنير لي طريق العودة في لحظة الضياع التام هذه؟ هل كنت أبحث فيه عن بسمة، أو صورة، أو لفظة، أو حتى إيماءة تطلب مني البقاء؟

يا له من شريط! يطل وجهٌ كالملاك زلزل جلستي؛ فتحرك جسدي المتجمِّد في تضايُقٍ وعصبية.

لا يا أمي.. لا! ابتعدي عن شريط كان ابنك فيه الضحية على الدوام، وكان الأبطال مصاصي دماء لا يرحمون حتى الأطفال، مكانُكِ ليس في هذا الشريط يا أمي! بالله عليك ابتعدي.

اهتزت قلوبُنا في صُدورنا في اليوم الخامس حين استُنْفِرْنا للخروج إلى البحر لشقِّ الطريق إلى "إسبانيا".

أذكر جيدًا أنه كان يومَ سبتٍ من شهر "غشت" – أغسطس– من سنة ٢٠٠٥م. في لحظةٍ قررتُ العودة من شدة خوفي من الموت بحرًا، قررتُ ذلك دونَ رجعة.

اكتسحني وجهُ الملاك عنوةً، وهذه المرة شعرتُ بأنفاس أمي تحضُنُنِي.. أغلقتُ عَيْنَيَّ حتى لا أراها؛ فإذا هي داخل مُقلتي، وإذا أنا الذي أحضنها وليست هي، وإذا بينابيع الدموع التي امتصها شريطُ العمر المهدور بداخلي فَجَفَّتْ، تتفجَّرُ سيولًا من جديد، كلُّها تفجَّرتْ وغسلتني من رأسي حتى أخمص قدمي. وقفتُ في خفة، تنفستُ الصُّعداءَ الذي يلي بكاءً مرًّا... آهٍ..!

وجدتُني شخصًا جديدًا ؛ كبيرًا، مسؤولًا.

يا أمي.. يا ضحيةً مضاعفة، اكتشفتُ اللحظة أنكِ من دوافع رحيلي، بل لعلك دافعي الرئيسي، يا ملاكًا يُعطي ولا يأخذ، لن أَسْمَحَ باستنزافنا لك حتى الموت.. كفى.. لا أحد يعرف قيمتك غيري.

يغضب مني وجهُ الملاك.. لا أنظر في عينيه.. لكل شيء ثمن، وآهٍ.. ما أبهظ ثمن هذه الليلة! كم أتعبناكِ أمي كم أتعبناكِ، وحانَ الآنَ الوقتُ لشَدِّ الرّحال بحثًا عمَّا يُعيد إلينا بسمتَك القديمة.

أَحْسَسْتُنِي في كامل عزيمتي وإصراري، لكن فجأة تأَجَّلَ الخروج بسبب ظروف مناخية، رغم أنه كان فصل الصيف. فكرتُ للحظة أنها فرصةٌ ثانية لمراجعة الذات، لكن عزمي كان أقوى، واغتنمتُ الفرصة؛ لأستعيدَ نَفَسي وطاقتي وشجاعتي، ومَنَّيْتُ نَفْسي بتحقيق أُمنيتي.

جاء يومُ الخروج الذي لا رجعة فيه.. تراجع البعض من شدة الخوف والتردُّدِ وكثرةِ الهواجس، لكنهم عادوا مُسرعين، وفي عيونهم نظرة استسلام للقدر.. للمجهول.

أحدهم بيدين مرتعشتين "يبرم جوانًا" كبير الحجم، كان وجهه ممتقعًا يرشف كتلة الدخان بجوع كبير، ولا يعيد إخراجها ثانية، أو هكذا خيِّلَ إليَّ آنذاك.. يقترب رفيقاه منه، يمدُّ إليهما ولاعته، يدخنون الجوانات بِنَهَمٍ وصمت وشبهِ شُرود.

وَصَلَتْ ساعةُ الصفر، أو الثانية عشرة ليلًا، أو منتصف الليل ـ سمِّها ما شئتَ ـ، أُخْرِجْنَا من المخبأ، اكْتَسَحَتِ الغشاوةُ الرمادية صدري الأجوف

وما عُدْتُ أَدُقُّ أبوابَ الماضي، توجَّهنا صوبَ الشاطئ مُهروِلين جماعةً في صمت مجرَّدين من كلِّ متاع، من حينٍ لآخر ينهرنا أحد "الحراكة"الثلاثة لكي نسرع.

وصلنا "المضيق" كان "الزُّودْيَاك" هناك، وفوق الزُّودْيَاك رأينا كلُّنا – يقينًا كلُّنا- الموتَ الزُّؤَامَ يَحُوم، وشَمَمْنَا رائحته، إنه الموت نفسه الذي ابتلع الحراكة السابقين.

لستُ أدري كيف لم تَراودْني فكرةُ وجودِ أشباح السابقين حوالي هذا الزُّودْيَاك، وبهذا المكان الأسود، ألأني دخلت دائرة الأشباح أنا أيْضًا؟ لا أريدُ أن أعرف.. إذْ يَكْفِي أنِّي عَرَفْتُ كيف تتجمد الحواسُّ من شدة الخوف حين يصبِحَ المرءُ في مواجهة الموت، وحين يضع قدمه لأول مرة على قارب الموت الشهير.

كان الزُّودْيَاك يحتوي على محركين كبيرين.. انطلق بِبُطءٍ مُزَمْجِرًا، جلسنا مكدَّسين على جانبيه،

والباقون تكوَّموا وسطه، ما عادت لأحد منا الجرأةُ على الالتفات، كنتُ أحاول عدم الرؤية للخلف، ولا أركِّز التفكير سوى على فكرة الوصول، كان صاحب القارب يطلب منا الصمتَ وعدمَ الكلام بصوت مرتفع.

القارب يبتعد حقيقة عن الشاطئ، والخوف يتعاظم داخلنا، وعندما ابتعدنا عن الشاطئ أوقف الرُّبانُ القاربَ، لا أثر لليابسة بتاتًا، اعتقدْتُ أننا اقتربنا من الهدف، وأن عليَّ السباحة إلى شاطئ الفردوس، لكن التوقف كان من أجل تبريد المحركيْنِ، مكثنا حوالي عشرين دقيقة.

كانت ظُلمة الليل الحالكة لا تسمح ـ حتى ـ برؤية من هو جالسٌ أمامي، وكان كل واحد منا يتمتِمُ بين شفتيْه آيات قرآنية وأدعية للوصول سالمين، ومن حين لآخر يستعرض البحر ـ وهو سيّدُ الموقف ـ موجاته العاتية التي يرتجُّ لها القارب، وتَنْفَطر لها قُلوبُنا، أمواجٌ مخيفة ومرعبة، كم كنتُ أعتبر نفسي سبَّاحًا يُطوِّع الأمواجَ تِلو الأمواج على شواطئ "السعيدية" و"رأس الماء"!، ولكني الآن محاط بشيء اسمه البحر، ولا علاقة له بكل البحار التي أَلِفْتُ.

انطلق القارب من جديد يَشُقُّ صدرَ البحر إلى شطرين، تمدَّدَ الزمانُ والمكان بشكل لا يُطاق، وما تمضي ساعة حتى أقول: إني سأموت الساعة الموالية، وكل موجة تصفع القارب فترفعه.. ها هو الموت! مرَّت تسع أو عشر ساعات عرفت فيها معنى الصبر.. يا صبرَ أيوب لَوْ رأيتَ صبري، وتحسَّستُ صدري.. وإذا بأنوار الجنة تتلألأ من بعيد، بدأتِ القلوب تَخْفق بسرعة، وكلُّ الأنظار مُصوَّبَةً على ذلك الضوء، لقد قطعنا ـ إذن ـ أربعة عشر كيلومترًا في عرض البحر.

ضوءُ الوصول مزَّق غشاوتي الرمادية، ومزَّق سوادَ الليل.. بدأ خفقان قلبي يعلو على ما عداه.. طلب منا الرُّبان بأن نَنحني حتى لا نُثير الانتباه، وأَسْكَتَ المحركينِ.. بدأنا بالتجديف في احتراس من خفر السواحل.

و في لحظةٍ.. حسبتُ أننا بَلغنا الشاطئ، وإذا بصفَّارة مُدَوِّية تَجْرَحُ امتدادَ الظلام، ويسلَّطُ ضوءٌ خبيث ساطع نحونا، فبدأ رُبان القارب يدفعنا للنزول إلى البحر.. فهمتُ أن أمرنا قد انكشف، وهو ما أكَّده لي القاربان المنطلقان صوْبَنا في سرعة البرق.

هناك من قفز إلى البحر واتجه سباحة نحو اليابسة.. كان الأمر يبدو كسباق تنتظره جوائز وميداليات قيمة، لم أتمكن من فعل ذلك، لم أتجرأ على البحر، هذا النوع من البحار يَتَرَبَّصُنِي، وبقيت مع آخرين على القارب.

وما هي إلا لحظات ـ ربما لم تَتَعَدَّ بضعَ ثوانٍ ـ حتى وصل القاربان إلينا، وانطلق قارب القبض على الذين احتموا بحضن الموج الأسود.

لم تكتمل فرصة ضوء الجنة.. أركبونا في القاربين نحو الشاطئ الذي كان موعودًا، كنا عند الانطلاق حوالي ستين شخصًا، وعند وصولنا شاطئ السعادة لم نكن سوى خمسة وأربعين، لم يتِمَّ العثورُ على الآخرين، لم يفكر أحد في مصيره آنذاك، وضع رجال الشرطة الأصفاد البلاستيكية في أيدينا، وأدخلونا غرفة بها أشخاص آخرون سبقونا إلى التجربة، وإلى نفس المآل، لم يتم العثور على الآخرين ـ لا وجود لهم.

مكثنا في السجن يومين، ثم تم نقلي إلى مكان آخر لصغر سنِّي؛ حيث كان هناك من هم في مثل سني، بعضهم قبض عليهم، وهم في المحرك الخلفي لإحدى الحافلات، وآخرون في الشاحنات، وأغلبهم ذلك العام كانوا من طنجة والدار البيضاء.

كنتُ الوحيد من مدينة وجدة، ثم نُقلنا في قارب خاص بالمهاجرين غير الشرعيين، بعد التحقيق معنا عن سبب الهجرة، وعن وجود عائلة لنا أو أقارب بأوروبا،

أما أفارقة جنوب الصحراء فكانوا بالمئات مقبوضًا عليهم، وعند وصولنا إلى ميناء طنجة، تمَّ تسليمنا للسلطات المغربية المختصة للتحقيق معنا، كانت أولى التحقيقات هي الشتم والضرب.

عُومِلْنا كالقتلة والمجرمين، كان التحقيق مختلفًا عنه لدى الأسبان، لكن ما عاد يَهُمُّ، أَخْفَيْتُ هُويتي لكي يُطْلَقَ سراحي بطنجة مخافة أن أُرْسَلَ إلى وجدة، وأتعرض للضرب من جديد.

بعدَ أسبوع من الحجز في "الكوميسارية" أُطلق سراحي لصغر سني، وخُلُوِّ سِجلي العدلي من سوابق، اضطررتُ للعمل لمدة أسبوع بأسواق طنجة؛ لكي أوفِّر ثمن العودة إلى وجدة.

استغْرقتْ رحلةُ عذابي هذه مدة شهر وثلاثة أيام، وهو عذاب لن يعرف معناه من لم يُجَرِّبْ أشدَّ حلقاته عُسرًا على التصور، وهي ليلة الجحيم على متن "الزُّودْيَاك" الخرافي، لم تتحقق أُمنيتي تلك، فركبتُ تجربةً أخرى، ولم تتحقق ثانية... و...![1] *****

---

١ – أحداث واقعية من تجربة "محمد بحر" تلميذ سابق بثانوية زيري بن عطية وجدة.

سيزيف

سبقتْني السماءُ إلى الخروج كالعادة، أنظر إليها بحذر، تعلَّمْنا أن نشكَ في الظهور، فأحرَى فِيمَنْ وضعُه مُنْكَبٌّ علينا في حرص عجيب، أدِبُّ نحو عَمَلٍ باتَ يضيق بي، وبِتُّ أُكِنُّ له لُبَّ الغضب، تتوزَّعُني فيروسات الخيبة والعبث، تَقْرِض في نَهَمٍ خلايا جسدي،أَعْجِزُ حتَّى عنِ التفكير في مقاومتها.

أشياء ترتطمُ بداخلي، وأشياء تتَفَتّتُ، أضواء تنطفئ

وأخرى تتلاشَى، أغطِّي على شعوري بتَآكُلٍ سيكشفُ عنه آسٍ ما بعد حادثة ما بعد فوات الأوان، من ضحية الآخر فينا؟ العقل أم الجسد؟ العقلُ العاجز أم الذاتُ المقيَّدة؟ ونحن ضحية مَنْ منهما على وجه التحديد؟!

أدخلُ القسمَ، أتفرَّس ملامح تلامذتي، أبتسم من لبِّ قلبي للبراءة التي تشعُّ من عيونهم، تبدأ يداي آليًّا في إخراج سِلعتي الورقية كحاوٍ يخرج أفاعيه؛ فَتَذْوي الحياةُ في العين، وأتمدَّد في التابوت، أحكي دروسًا ميتَةً لتلامذة مُنْهَكين

التلميذُ الشقِيُّ يَرْشُقُني بسؤالٍ كالجمر؛ حول مقررات المديح، وعن جدوى الرثاء، وعن سبب نفْيِ التاريخ، واعتقال الحاضر، أرتدُّ لنفسي، أخجل دونَ ذَنْبٍ جَنَيْتُ؛ أَلأَجْلِ دَوْر الحاوي بِعْتُ أجملَ سنوات عمري؟

أتسلَّلُ في غفلة من التابوت، أبحث عن إجابة تقتل حرجي، أستنجد برفاق كانوا، وما عادوا، فيُبْعث الشبحُ الذي...، وأرى الجرحَ الغائر رابضًا لا زال في قلب الذاكرة، أعتذر لحرج اللحظة بأنِّي في لحظة ما ـ ولقناعة ما ـ كنتُ قد طلَّقتُ الإدارةَ طلاقَ الثلاث.

تتنكَّر اللحظة القاسية لمبرراتي : "ابحثي لكِ ـ إذن ـ عن مصدر عيش جديد"، أتحججُّ لقسوة اللحظة بشتى الحِجج، فلا تأبه بي، أخرج أجرَّ أقدامًا تَعِبَتْ من مسايرتي، وتعبتُ من استرضائها باستمرار، تَذْوي الحياةُ في العين، وأتمدّدُ ثانية في التابوت.

أوكرانيا

الأحد . ٢٥ ديسمبر٢٠١٦م. باريس.

ألم الأضراس والمضادات الحيوية، والباراسيتامول، وشتاء باريس؛ كوكتيل تعاسة لن يتفهمه سوى من جرَّبه، أتلهّى بقراءة خبر من هنا، وخبر من هناك، وصدفة يستوقفني اسم عزيز على قلبي "عكاشة"!، ودخلت بلا استئذان، دخلت حسابه الفيسبوكي.

تنفتح مداخل الذاكرة الموصَّدة، تتسرب أقرب ذكرياتي معه، تحتل المكان، تحتل حضوري، تكاد تُنسيني وخزَ الأضراس المريع.

عكاشة يلحُّ عليّ لألج منزله "بلبلان" مغريًا إياي بضرورة رؤية صندوق كنوزه ***"Mon trésor"*** كما يسميه.

أغتبط لأني أنتظر منه على الدوام روحه الطفولية، فعلًا، كان الصندوق صندوقًا، قلتُ لأغيظه:

– يشبه صناديق القراصنة.

لا يردُّ، كان مُستعجلًا لعرض محتوياته أمامي.

انتظرتُ رسائل، ولِمَ لاَ؟!، كُرَات بِلْي من هذا الطفل الكبير، أو طوابع بريدية قديمة، كم كنا نجمع منها!، أو نقودًا عتيقة، ورغم مقالب عكاشة المحتملة تحفَّزتُ ـ حقًا ـ لاستكشاف ما بالصندوق، وفي الوقت ذاته كنتُ أخنق احتمالي الأكبر؛ لأنه يُسبِّب لنا جميعًا وجعًا عميقًا، كنتُ أتمنى هذا الاحتمال، وأهابه في اللحظة ذاتها.

رفيقُنا الذي اختفى. هل يا تُرى عرف عنه شيئًا مفرحًا؟ هل توَصَّلَ برسالة منه؟ من أحد ما التقى به؟ في كل الأحوال لن يغيب بشير من متاهات الصندوق العجيب، هذا أكيد.

تطاول العزيز عكاشة إلى أعلى "الماريو"، وأنزل الصندوق، يقول عن زوجته:

- إنها تغار من هذا الصندوق، يُرْديها أرضًا هذا الصندوق.

ويضحك بشغبٍ طُفولي ليس غريبًا عنه، لم ترد زوجته محاولة محو ابتسامة خفيفة ارتسمتْ على شفتيها.

أجلس على حافة السرير، يجلس بجانبي، يفرغ على السرير بعض محتويات صندوق العجائب، كانت صُورنا بالثانوي.. الجنِّي لديه صور لنا، لا أمتلك مثلها.. يا لذكريات الثانوي البهيَّة! عروض مادتي العربية والفرنسية التطوعية، زوال الجمعة، بدل الرياضة.

ـ العقل أولى بالجمعة مساءً أم البدن؟

ـ يا أجسامَ الجِمال حاربوا عقول العصافير بداخلكم.. يقول بشير.

نضحك بصفاء الروح البريئة، ونتسابق للتنابز بأشد الألقاب تجريحًا للكرامة آنذاك : "أيها الرجعي، الانتهازي، "الدوزيام بيرو" كم كنا نتقزز من حمولة مثل هذه النعوت!.. يقرأ رغبات انبهاري، ويُلجمها بقسوته الطفولية الصارمة.

- لا تحرجي كبرياءكِ، والله لن أعطيكِ ولا صورة واحدة منها.. لقد أقسمتُ.

الشرير!.. أقول:

- أتوسَّلُ إليكَ فقط هذه.

- لا تضطريني لأجمع كنوزي.

أراهن على أن الصندوق لازال مكانه؛ لأني أعرف ما تعنيه الذكريات الثمينة لعلاقات أثمن، من زمن لا يُثمَّن.. السبعينيات وما أدراك ما السبعينيات، انتقينا سويًّا وتلقائيًّا صورة المغيَّب عن قلوبنا جميعًا.

أنظر إلى الطفل عكاشة الجالس أمامي متدثرًا بجسد أستاذ الفرنسية، يهزُّ رأسه بحركة خيبة ويأس على شفتيه.. نسكت في الحال.. يغلق الصندوق في الحال، ويعيده فوق "الماريو"، أشكره على التواصل الرهيب بين الطفلين الملائكيين الوفيين الخالدين فينا.

لا نفع من أي كلام زائد حول بشير.. سنوات الحديد أتت على الأخضر واليابس ـ على أية حال ـ لا ندري لقد غادرنا جميعًا..

لا ندري إلى أين.. قد يكون على قيد الحياة وتغيَّر، من يدري؟! لكننا ندري أننا قد نصَّبناه ذات زمن بشير الثورة، ولا نتراجع الآن تحت سيف المجهول، كان بشير الثورة.. بشير الغد المشرق... فهل يشك الغائب الباهظ ذا.. أنا ما كنا سنحاسبه على ما اقترفته في حقنا الأيام المتربصة بكل مخاض؟!

أحوِّل نظرتي عن عكاشة، وأنا أقرأ ـ وهو لا يشكُّ في فراستي – في عينيه جمرة أخرى يتحمَّلها بمروءة لا يفهم ثمنها الباهظ سوى مجموعتنا الملتحمة المنصهرة تلك.

أتذكّر إلى يومه وجوه بعض تلك الصور: عكاشة شيباني، بشير يوسفي، عائشة خرماش، حبيبة أوشن.. أتوغل في غابة النسيان؛ لأن التذكر ضبَّبته غيوم الوظيفة، والمهنة، والهواية، وغيرها من الفخاخ التي اصطادتنا.. عمَّ أتحدث أنا الآن؟

لماذا أراوغ كالجبان وأهرب من القدر الذي يقصم ظهري حين يستعرض قوته الضارية كما يفعل الآن؟، لماذا أحتمي بذكريات الأمان، وأنا أمام حاضر لا يؤتمن، وواقع لا يطاق؟.

لقد داخ اتِّزاني وتبخَّر صوابي، وانتعش ألم الأضراس من جديد، وأنا أطوف صُعودًا ونزولًا على حساب عكاشة الفيسبوكي.

لا أستوعب من هو الفقيد، لا أدرك لِمَ هذه التعازي؟، وأخيرًا أفهم أنه "يوسف".. لكن من هو "يوسف" ؟، أتصفَّح من جديد.

لهفي! ثم أرى ابتسامة عكاشة التي تحسم فراسة العلاقة القديمة، وبلا أدنى تردُّد، أنها مجرد قناع لوجع قاتل في قلب عكاشة، هل مات الطفل في صدر أخي عكاشة؟! أكاد أجزم، بل أجزم أنها ابتسامة المهزوم أمام قدر أخرق الخطوات.

امْتَزَجَ كلُّ ذلك في صدري، بوجع الأواصر الدموية التي دُفنتْ ووجع الأخوة الأنيقة التي شيدتْها أفكار الثورة فينا، وبكل ما لا يتسع له المقام.

أعود إلى الحساب أكتسحه مثقلة بمخاوفي، صعودًا ونزولًا، صعودًا ونزولًا.. يا للقدر العتيِّ المتعالي على ضعفنا!، يا زمن اللقمة الرديء الذي فرقتنا، كم كان عكاشة وزوجته سيحتميان لحظة الاستهداف السادي !، غير المقدور عليه..بصدورنا، بدموعنا، بلملمة جراحنا، وضمَّها إلى صناديق كنوزنا التي يهددها الوأدُ والجحود والنكران.

أخي العزيز.. لَمْ أَرَ يوسف قطُّ، ولا عرفْتُه قط، لكني قرأتُ في صورته الكثير من مرحك، ومن مروءتك وكرم أخلاقك.. أخي لقد احترقتُ، وبكيتُ كثيرًا،

وتذكرت صندوق العجائب الذي يشهد على حلمنا البهي بتطهير جذري للهواء الذي يخنق أنفاس الضعفاء مثلنا، وقلتُ: لِنَجْعَلْ من يوسف الجميل لؤلؤةً تتوسط عِقْدَ الصندوق الخالد، سيكون تاج كنوزك، تُعَرِّفُنِي عليه يوم نلتقِي، وسنلتقي ـ إن شاء الله – بنفس مرحك الطُّفولي العنيد، ونُكران ذاتك الذي أعطيتَ فيه أشد الدروس قسوة على الذات، فنستعيد أخي بهاء سنوات الطُّهر كالمنتظر.

بهاء السبعينات ـ وحده ـ سيوقظ سحرَ العقل فينا؛ فنقتنع معًا لِمَ لَمْ يُطق يوسفُ زمانَه الحضيض، زمنٌ تحتَّم علينا فيه لردِّ اعتبار الأحلام المشروعة لبناتنا وأبنائنا أن نسيِّحَ دمَ العروق، ونبعثه عبر البنوك إلى بلدان تفتح لهم بصيص عِتْقِ الرقبة ـ رقبة محكوم عليها بالنَّحر على مُدَرَّجات الموطِنِ الذي عَشِقْنَاه، وإذا به يجلدنا بالتنكُّر لفلذات أكبادنا؛ لأن أبناءنا وبناتنا

وإذ لقحناهم منذ حداثة عهدهم بالحياة مَصْلَ العزة والكرامة والنزاهة رسبوا في اختطافِ لُقمَ الغير.. بنقط غير مستحقة بكل المقاييس عدا استثناءات تُعد على رؤوس الأصابع.

نقط "بَّاكْ صاحبي"، ونقط "العدسات الإلكترونية" وانعدام الرقابة المدسوس، ونقط المدرسة الخصوصية "الحاتمطائية"، ونقط الدروس الخصوصية التجارية، ونقط "وصِّي عْلَيَّا نْوَصِّي عليك" و"استرني أسترك"...

هؤلاء هم القتلة يا أخي، مهما شهقوا وانتحبوا على أعتاب بيتك.. كل هؤلاء ساهموا في عملية الاغتيال الغادرة.. هؤلاء قتلة أكثر من مجرم أوكرانيا اللعين.

*****

اصطلاء

"وطني.. يا وجعي..!"

ترِجُّ هذه الآه الدموية، هدوئيَ المُرَوَّضَ على نشرات الذبح، والخزي، والاستفزاز اللئيم.. لو بُحْتُ لك قارئي في هذه الأثناء أن الصرخة الحَرّى ذي، اصطلى بها فتى على مسامع خريطة صمّاء، تأْفُلُ منذ شروقها المصطنع دافنةً رؤوسها تحت وسائد العار.. لو بحت لك ـ أتحداك أن تغوص قلبًا وعقلًا وضميرًا في صُهارة هذا التنهُّد الموجوع، ولا تذوب بأقصى درجات احتراقك.

أنا تلقَّيتُ السهمَ الموجِعَ المباغِتَ على جَنْبِ صدريَ الأيسر.. يحمل رسالة عليها صورة الشاب اليافِع، صورته الآن أمام ناظري، توهمتُ أن أقصى ما يشغلها نكتةٌ.. قصيدةٌ رومانسية عذبة.. تنديدٌ بوضع اجتماعي حتى، بل طاقة احتمالي كانت مؤهلةً لتَصَوُّر غضبٍ من الفتى الذهبي تجاه العالم، بل انتظرتُ سخرية مُرّة من المرحلة، لكن أن يصدح قلبُ الفتى الحديث العهد بالأيام ـ أمامي ـ بهذا التنهُّد المريع "وطني.. يا وجعي..!" فذاك منتهى الفشل لعالم يحتضر بين مستنقعات نتنة ملغومة متراصة.

ـ ماذا يا ابني؟!

ـ من أنت؟، يرد حسين المخلافي: هل تعرفينني؟

ـ لا أعرف عنك سوى اللُّغم المدوي الذي تفجَّر في وجهي وأنا أتفرَّس بثقة المُطْمَئِنِّ، قصة حُبك التي بعثرتْها وحوشُنا المروّضة.

ـ "وطني.. يا وجعي..!" يلعج الفتى الموجوع من الداخل.

ـ الويل له من تعبير رصاصي.. تمَهَّلْ.. إنك تطعنني وتمرغ خنجرك الأثري في وريدي.

أضع مِبْضَعي على قلب الفتى الذي يرفُّ كطير مذبوح، وإذا بوصفات أدويتي تتبخَّر في لا جدواها.. الفتى يعاني حُبًّا مشروخًا بين قلب وقضية، كيف نُلَمْلِم البرزخَ بين فِرْدَوْسَين؟! وكيف تمكَّنَ الفتى الجريح الأعزل من تقطير نزيفه في قصيدة ـ برقية : "وطني.. يا وجعي..!"مُلغيًا بريشته معالم "الخليل"

وكل البحور؛ إذ لا بَحْرَ في مدامعه سوى بحر الوطن، ولا شطآن سوى مرافئ الأهل الذين تتمناهم العين البصيرة، ولا تطولهم اليد القصيرة، فلا يجد الفتى المُحْتمي بالأحياء الجامعية الروسية، اسمًا لمخيمات لجوئه الجديد!

قصيدة ـ برقية ـ مُقَطَّرَة في جرعة لا أدري أهي بلسم وماء حياة، أم هي سُمٌّ زُعاف؟ مع هذه القطرة الدموية ما عاد لعلل "الخليل" وزحافاته من مبررات وجود، ومن معنى.. كل المعنى المُدان هنا هو علل الساسة الجبناء على مساحات كل المعمور.

لا يأبه المثخن خيبات بوجودي، وينشغل بفتح سراديب القلب المهجور.

ـ "اشتقتُ إلى بوحك".

- "حقًّا.. أنت من محصول الرضا من دعوات أمي".

-"عذبة أنت كبزوغ السلام بوطن أرهقه الخراب"

ترديني نبضات قلب الفتى طريحة أوجاع مميتة، في قرننا ذا، المسكون بالعبث واللامعقول..

طائرات القدَر الساخر المقهقه عاليًا من عجزنا، تبدِّدُ بالأعاصير قصة قلبينِ كانا إلى أمس آمِنَيْنِ، مؤمنينِ بإشراقةِ الغد، وتدمغ وصل اللقاء بينهما بأجل اللامُسَمَّى.

أحتمي من الفتى المحصَّن بطلاسم عقل مستنير، حتى أنه يضخ سهام الإدانة في الأعين العمياء والآذان الصمّاء كما يضخ فدائيٌ خزانَ رشاشه في صدر طاغية متهور.

أحتمي بذاكرة أمس قريب.. المطعم العربي بموسكو، على يميني صفاء، جنبها محمد، بيمينه عبدو، بيننا نشوان قُبالتنا جنب نافذة تنفث بردًا يهدِّد مدفأةَ المطعم..طاولة يرأسها همدان وحواليه صديقاه، بين الفينة والأخرى يتصاعد ضباب الشيشة من فم أحدهم، يناقشون موضوعًا بين هدوء عميق، وصخب شبابي متحمس.

نتذوق أطعمةً تحمل نكهة الوطن أو تكاد، نتحاور ومجسَّات وعينا تقيس مقدار ونوعية الإدراك لدى بعضنا البعض، لا نختلف حول الكثير.

ـ هل تعلمون يا أبنائي أن هذه الأفكار إن هي إلا بقايا غامضة لمرحلة مُشعَّة علمتني الكثير؟

ـ ما كان يجدرُ هدم الجدار التاريخي، لَكُنَّا الآن تحت سماء اليمن السعيد.

ـ اليمن المذبوح تحت أنقاض الجدار المغدور، ما أفظع انهيار الجدران التي شيَّدها الفكر الخلَّاق.

ينظرون في أعين بعضهم البعض بصمتٍ جنائزي أخرس لا تعرف فيه النظرة أدنى طَرْفة، ما الذي قُتِل في صدور هؤلاء اليافعين؟ يبدِّد نشوان بنكتة خفيفة ثقلَ الصمت الهادر في صدورهم .

لماذا يبهرني دائمًا هؤلاء الشباب اليمنيون بهدوئهم اللافت؟ وإذا بالمخلافي يفضح انفصاميتهم، وهو يفسح كوةً لغيض من فيض بركانهم الجماعي.. أباطرة الصبر بين دروب روسيا الباردة، كيف تجرأوا على إضحاكي، وعلى إسعادي، وعلى أخذ السيلفيات معي بابتسامات باذخة أمام تماثيل خالدة هناك.

ـ تعالي.. لا بد لكِ من صورة هنا.

ـ اتركها تختار بنفسها.

لينين بالساحة الحمراء، وبقلب محطات المترو الموسكوفية التاريخية الخلَّابة تولستوي ودوستويفسكي بشوارع محاذية للساحة الحمراء، مُلصقات على واجهة مسرح البولشوي تعلن عن اقتراب الموعد مع المسرحية الخالدة "أنا كارنينا"...

ـ أنتِ محظوظة، انظري: سِيركَ الإخوة كارامازوف سيشرك فرقةً إفريقية في عرضه المقبل، لا تفلتي الفرصة، الإخوة ما زال عطاؤهم عظيمًا.

بمجرد خروجنا من هذه المعابد الثقافية، تعود النكتة والأحاديث البعيدة عن محتوى ما استمتعنا به قبل لحظات، لا تعليق على تماثيل الرموز السياسيين ولا الأدبيين، لو بقي المخلافي معنا،

ماذا كان سيفجر من مكنونات صدورهم الصغيرة التي لم تنعم باحتضان أم مكلومة أو جدة موجوعة أو أبٍ أو أختٍ أو أخٍ... منذ ست سنوات بالنسبة للكثيرين منهم؟

يتيهُ حسين.. يجوب الخرائط الصمَّاء، والعواصم الباردة، وحين يزداد شوق العاشق لبوح الحبيبة تتعنَّت عنجهية السلاح مُشْهِرةً رشاشات القنص المباغت؛ فيجاهد العاشق بالإخلاص لحب ارتقى إلى باسق السماوات، أو ليس حاصل رضا الأم كما اعترف قبل قليل؟ كل خلايا الصدر تدعو الفتى للعودة.. للقاء الحبيبة.

يردع الواقعُ القاهر ضعفَ الفتى العاشق وقصرَ يده، لكن الطير المجروح لا يستكين.. بل يستجمع ريش الجناحين المكسورينِ، ويجهر بالولاء للقبلتينِ معًا، فكم هي عذبة هذه العشتار، لكنها مستحيلة الوصال قبل "بزوغ السلام بوطن أرهقه الخراب". قاسٍ مَن يمر على الجسرين المحتومي التقاطع دون أن يذرف دمعًا خليليًّا إبراهيميًّا.

ـ أتمنَّى أن يحصل لقاء بطريقة ما..

– ستلتقيان.

ـ كسحابتين نخشى أن نلتقي فنسقط الاثنان.

ـ لكنكما نجمان في ليلنا الحالك المستغرق في شخير مرضي.

لا يأبه المخلافي بكلامي مستسلمًا لهذيانه، ثم يوصِد ـ فجأةً ـ شريط غرامه:

ـ "غفرتُ رحيلَها." تدوي روح الفتى..

فهمتُ بعد الرحيل، وبعد الغفران العظيم سر الحزن الكحلي في أعين شباب موسكو اليمنيين.

ـ لِمَ كذبتم عليّ بابتساماتكم، وروح النكتة على ألسنكم.

أي انفصام كتوم هذا يا أبنائي، وكيف تخفي صفحةَ العين سواد ليل اليمن البهيم، وتنفرجُ الشفاه عن روح نكتة نخرُّ لها صرعى بموسكو ضاحكين، وكيف ـ فجأة ـ يأتي المحصن ليبعثر ألوان كرياتي شظايا.

ـ لا أحتمل ظلَّ إبهامك على الخريطة الطريدة ـ فهي عكس ما تعتقد ـ قد تصلح لبقايا خريطتنا جميعًا.

ـ لا.. بل بلغ النصل مداه في ربوعي.

ـ ولا أودُّ أن أعرف فيض أي عين بين يديها تذرف دمعك الجارف والجارح الآن.

ـ "في موطني.. لم يُبْقِ الخرابُ مكانًا تنمو فيه وردة للسلام."

ـ يا رب الكون.. نحن همُ ـ إذن ـ رموز الخذلان الموعود في غيب لم نقرأه؟، نحن صرعى كل الهزائم في كل التواريخ الحديثة، كيف اعتلى هؤلاء مطايانا، وجرُّوا بنا الحبال على أشواك الحظ المحسوم.

ـ "أرأيتِ لماذا كفرتُ بضمير الإنسان؟"

ـ بقلبٍ نازف اللحظة أعذرك، لكن ستلتقيان.. تداوي مُلوحة دمعك الغزير مواطن الجرح بربوعك؛ فتزهر شقائق النعمان إثر كل دمعة ذرفت، تزهر على خدود وشفاه أطفال اليمن، وفلسطين، وسوريا، والعراق، وعلى شفاه كل طفل مقهور من أقاصي الشرق إلى الغرب.. أيها المتطوع للاحتراق بقلب ملائكي تحميه إرادة خلَّاقة لا تموت.

حصار لعين

الزمنُ هُوَ هو.. والمكان هو هو.. وأنت وافد جديد قديم، لقد كان نزولك ليلًا، والفجر ـ كل الفجر ـ تركتِهُ وراءً. النهارُ حلم، والليل واقع وحقيقة. وعليك الآن ـ وحيدة ـ تلمُّس دربك.

الزمنُ هو هو.. والمكان هو هو.. فقط هم تغيَّروا، فلا هم تعرَّفوا عليك، ولا أنت تعرفت عليهم، ستصفعك التجارب ـ التفاهات ، فالمفاهيم هنا غير المفاهيم هناك، حتَّى من لدن من لقَّنوك أبجدية النجوم.

أفيقي.. إن النزول من أجل الصعود كان هو الدرس المنسي لديهم، وأنتِ الآن نزلتِ إلى حيث النزول سنة؛ لذا فالوضع لا يتطلب مداراة، بل حسمًا جذريًّا.

نعم للجذرية ـ أيضًا ـ مفهومها في الليل: عليك إما الموت اختناقًا تحت جثة قد لا تحمل من الرجولة غير الاسم، ومن الإنسان غير النسب، أو الموت صفعًا يوميًّا من لدن الجميع، أما الموت.. فلا بد لك من الموت.. هذا حكمٌ بالإجماع عليك، فما رأيكِ؟

أقرأ أفكارك في عينيك اللتين لا تحسنان الكتمان، ستسحبين ذيولَ خذلانك، إذ جيشك مازوشي، وأعلامُكِ مُنكَّسَة.. إلى أين؟ الانسحاب ـ إذن ـ تريدين.. لن تفلحي في هذا.. علَّمكِ الصبرُ أن الأولى رمي حصاة في محيط، لستِ ممن ينتحر بسبب أقزام مهما طالوا، وغلمان أمالط مهما اصطنعوا الالتحاء.. دعك من قشعريرة الضعف أمام شدة هذا الحصار اللعين، فقامتك تعتلي صهوة الحق، والحق قوة ـ في حد ذاته ـ لذا فقامتك ممشوقة رضوا أم كرهوا.

أمَّا الأشلاء آبت إلى الجحور يرهبها ولوج باب الذاكرة

حيث تقلدت الجمرة منه العتبة، والكي درس رهيب، الكي..

آهٍ درس رهيب!.

*****

ضحك لا يشبه البكاء.

نلتقي مرة أخرى، ومرة أخرى تتغيَّر فسيفساء القاعة، يغيب حضور هنا، وتنطفئ شمعة هناك، إذن مرة أخرى يعبث خلل ما بتجميع مكونات جهاز تنفسي نحلم بتركيبه، جسد مهنة الشرف على طاولة التشريح أمامنا مرة أخرى، نجهد كالعادة لئلا تكون كأخواتها المرات السابقة.

مريضة هذه العصابة التي تبنت على عاتقها تخريج الضحايا والمعطلين والبكاة الموجوعين، جنود خفاء بالتأنيث والتذكير على مساحة الرقعة التي تؤلِّف بيننا يعدون على رؤوس الأصابع، يُبدعون في ردع عبث العصابات وخبثها، لكن الآذان الصاغية تصيخ السمعَ لنشرات الراتب أكثر مما تستجيب لهواتف الإنذار وطلب الشهادة الحق.

مجموعة أرانب ذلك العام.. تجربةٌ مدويةُ الفضيحة.. أرانب ذاك العام أشدُّ فظاعة، وهذه السنة التهمت الذئاب حتى الصندوق..

وزراء اللعنة كانوا يختلسون ثم يختلسون ثم يختلسون، ويحشون سيرَهم الذاتية بسيرِ الغير، بعرق الغير، على كواهلنا ؛ التنقُّل وقتَ الضيق، التحاضير المكلفة، السهر المضني، الورشات تلو الورشات، النقاش المدمر لخلايا الذهن المصدوم بكتل التحجر الخطير.. الحرب الضروس وإحداث الثقل بالنظرات والهمسات والغمزات، وعند العجز،حتى جهارًا.

كانوا ـ على الدوام ـ المركز المعزَّز والمدجَّج، وكُنَّا ـ على الدوام ـ المحيط الأعزل الذي على حق، والذي تُكال له شهاداتِ التقدير ورفع القبعة من الأجانب المؤطِّرين أو الحاضرين؛ ليبدَّد بعدها دون حساب. الذئابُ المتضورة جوعًا فكريًّا لا تعرف الضمير على التوالي.. كلها متماهية.. نشعر بالضآلة ليس بسبب الذئاب حصرًا وإنما تحديدًا بسبب الآذان الصاغية لنشرات الراتب وحده.

نلعن أنيابَ اللصوص، وتعنُّت الجريمة، وهيمنة الجهل المعبود.. ومرة أخرى يتأكد أننا لن نحسن صنع شيء ما دام خلل ما ـ هناك.

نشفق على مكوناتِ الروح في الجسد والعقل، ونستنجد بأعين المنكسرين مثلنا في القاعة، على طاولات تستفزُّ عنفنا المقموع.

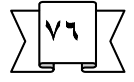
يصرُّ إبراهيم بآلته الرقمية على تحنيط لحظات من ليلة الانسلاخ من جلد الأربعة نجوم المصطنع.. ليلة الجمعة/ ٣٠/ ٠١/ ٢٠٠٩م.

بصراحة نتعلم ـ دائمًا ـ شيئًا ما، من أحدٍ ما حين نغيِّر المكان، تعلَّمنا من إبراهيم أنه إذا تعب العقل يضخ القلب المجنون دماءً للحفاظ على هامة الجسد، وأن الضحكَ انتصار على الشعور بالإهانة،

وأن تحويل معاناتنا القدرية إلى كاريكاتور كلامي ساخر مقهقه، يعالج القلب والجسد، ويقيم توازنًا بينهما وبين العقل المتعب، كم هو ممتع أن ندوس على غرور الأيام بالضحك المتفجر من أقاصي الوجدان النظيف!.

أطعمنا البطنَ خارج الأربعة نجوم المتعجرفة في عنان السماء، فمطاعم طنجة الشعبية تدعونا بالأحضان، وأطعمنا الروح ضحكًا صاخبًا فجَّرته الطفولةُ الموؤودة في دواخلنا، ورغم كل شيء لم يكن ضحكا يشبه البكاء.

*****



جرادة بمداد القلب

تشكيلٌ طُفولي من وحي وقتٍ ضاع، ووقتٍ يصرُّ على الغياب، إلى التي بشكلها الهندسي الصريح علَّمتني الرسم بالبساطة لا بالتشكيل.. لن أنساكِ.. كيف أنساكِ؟!

وبعد..

سيدة الوقت.. طال الوقت بيننا، أنا في غربة النفي، وأنتِ في غُربة الأسر والاستنزاف، وقد مزَّقني الحنين إليكِ؛ لذا تراودني مبايعتك علنًا من جديد، فهل أحظَى برضاكِ عني؟ بلغني أن الداء في صدرك تشعَّب قنوات قنوات تنخر رئتيك، وغدَا أخطبوطًا مريعًا، وكنتُ حذرتُكِ، وقلتِ:

ـ بي الربو وداء الخناق.

تنكرينَ انتحاركِ عني تحت جلد الأرض، هل أقول: خدعتِني سيدةَ الوقت ؟! وكنتُ صريحةً معي حتى الصفاء! حذرتُكِ من تضحية المجانِ التي تخلف ضحايا بالمجان، وواصلتِ تشهقينَ الكربون لتزفري الأكسجين الذي يُصادر قبل أن يبرح رئتيكِ حتى اسودَّ لون أيامك.

لمن ويحكِ؟!، وأبناؤك يتنفسون بالكاد.. لمن ويحك؟! ورحمكِ يكاد يجف.. أما كفاكِ بعد إنجاب عبيدٍ لتجار الأنفاس البشرية؟!

سيدتي.. لقد كسبتُ رهانًا أشهرته يوم تعالت النياحات المدججة بدروع الكلام، كسبتُ الرهان؛ لأني أومن فعلًا أن الجنة تحت قدميكِ أمي؛ لذا أعلن بكِ ثقتي.. وكلِّي علم بأن الجنة قد صُودرتْ من تحت قدميك، وسُحبت كبساط مسروق.

أتذكرينَ يوم شيعتني إلى بابك تمتصين سيولَ دموعك خلفي كي لا أراها، وقلتِ مودعةً:

_ حصِّلي قسطًا من العلم؛ لتنقذي أسرتكِ ـ على الأقل.

فقلتُ لكِ بالحرف:

- لا أسرة لي سواكِ، ولا أمومة لي غيرك، فقط زمني شوَّه كلَّ العواطف. أولستِ من احتضننا حين تنكَّرَ لنا دمُنا لأسباب جاهلية ؟

ابتسمتِ ابتسامةَ العارف المجرب، ولسان حالك يقول:

- أعلمُ جد العلم أنك لن تعودي.

لم أجبكِ؛ لأن غصَّةَ فراقكِ على حالك ذاكَ كانت شفرةً في حلقي، وأجبتُكِ إذّاك في قلبي:

- أجمل إرث منك سيدة الشموخ، نفسكِ الطويل ـ رغم دخان الاختناق.

سيدتي.. ها أنا ذي أعودُ إليكِ من جديد؛ لأني أحملكِ داءً في القلب، يعذِّب نومي وسهادي، يعسِّر صفوي وهنائي، أحملكِ داءً في قلب ينزف.

كل العوالم التي زرتُها حاولتْ أن تُغريني لتنسيني، أحيانًا ـ بحسن نية.. ربما..ـ لكني كنتُ أقول: الأمومة ليست حسب خيط نسب، الأمومة دون بنوة لا تعيد تشكيل العالم.. الأمومة حبل وريد يوحِّد الحياةَ أو الموت بين الأصل والفرع.. بين الجسم والعضو..

وكنا تعاهدنا أنا وأنتِ في السر والعلن على الحفاظ على حبل السرة لا نقطعه ولتذهب كل العادات إلى الجحيم، فكيف ـ إذن ـ أعيش على البر، وأنتِ في لُجة المستنقع تصارعينَ أنيابَ التماسيح.. لقد كنتُ عند وعدي، وعند حسن نيتك فيّ، وعند هيبة مقامك؛ فانتقيتُ من العلم البسيط والواضح والطيب ما يجعلني أترفَّع عن لغة التماسيح التي تتوزع درك بأنياب طويلة سامة ـ مهما تباينت الأقنعة.

أمَّا عن ذوقكِ سيدتي.. فيكذب المعقدُ الذي يدعي أن جرادة المغبرة المُعفّرة المطلية بالقطران لا تملك ذوق الآلهة؛ لأن جرادة تعزف عن عبِّ أكوابِ العرق حتى الثمل، وهم يفعلون، وجرادة المجربة التي تحمل همها، وهم أهل الكهف يقظة تبصر، وهم ثُمالى لا يبصرون.

لذا جئتُ لأعريَ حقيقةَ طلعتكِ البهيّة التي أصررتِ على إخفائها تواضعًا وزهدًا.. جئتُ لأفضح سرَّكِ الأزلي إلاهة الفن، وأعلم أني بقولي هذا أخدش أذواق الكثيرين، وأصدم أسماعهم ورؤاهم المدلَّلة، وأستفزُّ ضحكاتِ العدوان لدى البعض، والسخرية المريضة لدى آخرين، لكن ماذا أقول؟

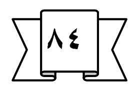
فمن الجمال ما لا يدركه الكل، تذكرينَ يومَ أسندتِ رأسكِ المتعب والمثقل همًّا على ركبتي، فمسحتُ بيدي الصغيرة على جبينكِ، وقلتُ:

- يا.. كم هو أبيض جبينك! لمَ لا تمسحين عنه هذا الغُبار؟ سأعلنُ للجميع بهاءك المستور، سأفضح السكوت الأبرص المضروب حواليك رغم شعارات الدجالين.

فقلتِ:

- وهل أنا مثلُ "أصيلا" لأستحقَ هذا الإطراء؟.

أجبتكِ، وكنتُ صادقة:



- بل أنتِ أفضل وأجمل.

قلتِ:

- "أصيلا" فنانة وجميلة وزرقاء العين إذ تطل على البحر، وأنا لا بحر لي، ولا شط أمان...

أجبتُكِ:

- أصيلا ترسم بالريشة والألحان، وأنتِ ترسمينَ بالدم، بالعرق، بالأَنَّات، بالأحزان.. أنتِ ترسمين بالإنسان للإنسان، وكُحل الفحم في عينيك من بقايا تقبيل ليل لنهار يوم كانا في عناق، ألوان أصيلا فروع،

ولونك الأصل، وامتقاع لونك عند المساء يوحي بوقار إله صيني، أمَّا حرجة صوتك بالأمسيات الباردة ـ سيدتي ـ فتشجي كبحة مغنٍ مجروح، وكآلات نغم بدائية لم تُغتصب بعد، ولم تكتشفها أصيلا الفنانة بعد.

فن أصيلا الرسم، لكن فنكِ الوشم الأصيل، والبحر لأصيلا، لكن الموج لكِ، والشطُّ لاصيلا، لكن الأمان منك وحدك ـ سيدة الاجتياح ـ لو قلتِ للطوفان: كُنْ سيكون فهل تعلمين؟

قلتِ:

- و لمَ لا يقامُ لي مهرجانٌ سنويٌّ إذن؟

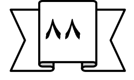
انتفضتُ كطيرٍ وُخِزَ في جرحه، وسكتٌّ؛ لأني تذكرتُ مهرجان الموت من شتاء كلِّ سنة، وسكبتُ دمعي وسافرت، شددتُ الرِّحال إلى الحكيم أفلاطون، دخلت المدينة ترتديني البراءة، بحثتُ عن مسرح أثينا التاريخي، سبابة أفلاطون لم تكن موجهة للسماء كما قد علمتُ، فشجَّع بعضي بعضًا وتقدمت، شكوتُ إليه ظلمَ الوقت والعجز وضيق الحال، وقلتُ:

- أريد أن أبرَّ أمِّي وإخوة لي منها في القهر، أريد دخول الجنة لهم لا لي وحدي، فبمَ تفتي عليّ أيُّها الحكيم؟

وحتّى لا أطيل عليكِ.. جنَّد لي جيشًا عرمرمًا تعدَّى الدفءَ إلى الاشتعال، فقررتُ نشوَى بفرح النصر الموعود:

- مهرجان عرسكِ لا بدَّ آتٍ.. آتٍ!

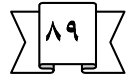
نعم لم أخبرك؛ إذ لم أردْ أن أخبركْ، كنتُ أودُّ أن تكون مفاجأةً تقلب موازينَ وقتك المقلوب، وتشفيكِ على حين غرَّة، لكن.. لكن انتظار المفاجأة طال، وطال معه عذابي، فاحتلَّ الحزن جهاتي الأربع، فلم أنسكِ، وقد نسيتُ نفسي.



أمَّا جنود أفلاطون سيدتي ـ فبمجرد مبارحتنا المدينة، وإذ أنا أتحسَّسُ جغرافيتي الجديدة ـ انفضوا حواليّ كالطير الجارح لالتقاط الجيفة، واغتصاب القطا، فأصابني الغثيان، ورجعت خائبةَ أبكي في صمت.. أبكي خيبتي وخذلاني بعد سفر طويل، هضمتُ فيه كلَّ حقوق عمري دون منة، غيرتُ مسارًا كان حتميًّا لأقدامي ورجعتُ، وشعرت ساعتها أني انتهيت، وفي طريق أوبتي الموحشة أوقفتْني قوافل ومسافر ن غرباء.. سألني مسافر غريب:

ـ من أية مدرسة لكِ كل هذا الحزن؟!

قلت :



- مدرستي امرأةٌ تلد التوهجَّ؛ لتعيشَ في العتمة.

تعجَّب مستفسرًا :

- هو انتحار منها إذن، أم جنون؟!

قلتُ:

- لا، بل هي حكمة امرأة لبستْ سواد الفحم إعلانًا لحدادٍ لا ينتهي.. حداد يفضح بشاعةَ الوقت المقنَّع.. حداد يخدش ذاكرةَ النسيان لدى أبناء عقُّوا أو كادوا.. حداد لن تمزقه سوى تهاليل الفرح الآتي.

قال متياسر بهلوان:

- "لقد تغيَّرتْ يا ابنتي المفاهيمُ والموازين.. فسايري عصرَكِ، تقدَّمي، تعالي نبدد أحزانك، وننظف جدرانَ ذاكرتك".

وذاكرتي ما كانت ملوثة، ولا مشوشة ـ كما تعلمين ـ، ذاكرتي ذاكرة موشومة حتَّى القعر، وجبان وعديم الإنسانية من ينسى أو يتنكَّر لطفولةٍ بريئة عاشت ممرغةً في الرماد وما تزال، تلقَّفوا بخبرة ماكرة أحاسيسي، وتغامزوا قائلين:

- "لنا من وسائل الاستتيقا المتحضِّرة ما يبدِّد الوشمَ، تعالي."

ومن الوشم ما تعمَّدناه أنا وأنتِ نكايةً في عادة النسيان.. ومحاربة النسيان كانت أهم رهان، وكأني بهم قراوني ثانية فاضافوا: - "تعالي ـ إذن ـ لتُولدي من جديد."

فاستغربتُ :

- كيف؟! فأنا مولودة ما دُمت أعي حقيقتهم!

هنا كلهم رتلوا: ـ بمن فيهم تجار اليسار ـ صدقيني، وعلى نفس الوتيرة واللحن :

- "أنتِ تستحقين أن تنعمي بقية أيامك.. خذي لك من زادنا واسمعي آراءنا، لم نُردْ أن نجرحكِ، ولكنكِ أصررتِ، إذن فاسمعي : ستأكلكِ الغربة في الصحراء، ولست سوى امرأة لا تصلح سوى للاغتصاب"

و مدُّوا نحوي أرغفةً مشروطة، وأكوابًا ملغومة، فهل سال بفعل الجوع والظمأ لُعابي؟ أبدًا سيدتي، فمنكِ رضعنا الكبرياء والأنفة رغم الجوع يعوي في البطن كما الذئاب، وواصلتُ ـ على الأقل حاولت ـ على الطوى والظمأ والوحشة...

عدتُ ترتديني الخيبة، وكم تمنيتُ تمثيلكِ أشرفَ تمثيل! فمعذرة.. وأجزم سيدتي أني كنتُ قادمةً إليكِ أعدو أحمل على كفي صهارة قلبي وعصارة دمي.. كانت هدية حلمتُ بها إليكِ، فكيف أستعيدُ اليوم ما اقتلعته في سهو عشقكِ من ظلمة أحشائي، ووهبتُه لبهاء وضوحكِ!

لذا قلتُ لك يومها إني انتهيتُ، انتهيت وما دبَّ إلى خديكِ توهج من دمي، وانتهيت وما سرى في دروب قرك دفء من صهار اشتعالي، فعلا، قد انتهيت يوم اغتال صقيع الغدر والخذلان نقيع دمي

فإذا هو نجيع راكد أسود من حلكة أيامك، أصلب من معدن رغامك، فتوحّدنا في الخيبة بعد عمر طويل أدمنا فيه على الحلم، وكنا حلمنا بنصر موعود أنا وأنتِ.

كم حلمنا أنا وأنتِ معًا! كلانا مغدور حتى سويداء قلبه.. تفردت بثقتنا الثملى ردة جنود مهزوزين، وها هي ذي تتعقبنا الواحد تلو الآخر شاهرة سنة الاغتيال.

أفأهرب منهم إليكِ سيدتي، وأنتِ عزلى؟! أم منهم تهربين إليَّ وأنا ضمير مغيَّب قسرًا وقهرًا، فقط تريني أعاند اللغات الجديدة، وأتبنَّى لغتك في كبرياء مهزوم؛

لأقول: إني ما انتهيتُ.. ما دمتِ واقفة في شموخ ـ ولو مغدور ـ أنا ما انتهيت، ولن تطربني لغات مداهنة بعد أن خذلتني لغة الاشتعال، فكيف ـ إذن ـ أرتدُّ إلى نقيض ذاتي؟! وكيف أستعيد اليوم ما اقتلعته في سهو عشقكِ من ظلمة أحشائي، ووهبته لبهاء وضوحك؟!

قيل عناد وتحجُّر أن أخلص للنبض الذي يربطنا، أهو تزمُّت أن أرفض وضع النظارات الجديدة المزعومة لأراكِ؟ فأنا كل ذنبي أني أهوى رؤيتك على شمس الحقيقة لا غير، وليُقَلْ ما يقال وما لا يقال، ما همني.

وها أنا ذي أعود إليكِ عاشقة، خاشعة، لم تغوِها كل آلهة العالم، فأنا أحنُّ إلى براءة وجرأة طفولة بحضنك أمي، لم تكن رحلتي في النسيان سيدة الشموخ، كانت رحلتي في مقاومة التغييب، في المنفى القسري، فما أنا سوى ضمير مؤنث مثلكِ لا يصلح سوى لتأثيث بشاعات النقص في سفر تكوين الزمن الذكوري الذي تمطَّط وطال بلا طائل في أغلب الأحيان.

فالحب قزمي موبوء، والتصويت ملغوم، والصلاة قبلتها غربية أو زحلية، دموية في الحالتين، ثم ـ بيني وبينك ـ لقد خجلتُ أن أرجع إليك خالية الوفاض، خجلت من دمعكِ أمي.

هل تعلمينَ.. حين أتذكَّر والد صديقتي الصغيرة ـ المشرف على الموت ـ أشعر بالخبث والتواطؤ يعمُّ الفضاءات، لقد وصل جزاء العم المحتوم ١٠٠٪ مائة بالمائة، ولم يكن بإمكان الطفلة التي كنت أن تقدم له شيئًا غير مساهمتي مع خديجة ابنته في التقاط العلب المعدنية من شوارع الأحياء، كانت كل ذخيرته، يراكمها قرب فراشه؛ ليقذف فيها بقطع رئته المهشَّمة داخل صدره، طيلة الليل، فترميها هي عند الصباح، إذ من يجرؤ على تنظيف العلبة من تلك الأشياء الرهيبة التي كانت قبل رئة بشرية امتصَّ السماسرةُ مناعتَها وتركوها عرضة لجرثومة الموت تنخرها..

من يجرؤ على دفن جزء من أبيه أو أخيه صبيحة كل يوم؟ من سيصمد إذَّاكَ للهيب نارين ستحرقانه مع مطلع كل يوم، أولاهما: التخوف من أن تكون هي المرة الأخيرة، وثانيهما: الإشفاق على هذه الذات التي تتألم، وهي تتفرج على جسدها يموت إربًا إربًا، ويتساقط كأطلال منخورة... من جرَّب تلك النار؟ من جرَّب هذي النار؟

وحدها جهنم وقتنا لا سواها، يا كلَّ رموز العالم، كيف يحدث كل هذا، وأنتِ مستوية على عروش في السماء، لكن لنا أنفتنا، لن نتذلل أبدًا لسماء تترفَّع عن الأرض بمبرر الألوهية، بل الألوهية مسؤولية، هكذا كنا نخمِّن،

وكان عقل الطفولة فينا لا يحمل فكرًا، لكنه كان محشوًّا بعواطف فكرية، نبيلة، جريحة، وكانت عاطفتنا تلك منطلقنا، فكرهنا بقدر ما أحببنا، أحببنا الخير ـ الحق؛ لذا كرهنا الشر ـ الاستغلال، أحببنا بإخلاص؛ لذا كرهنا بحقد، واحببناكِ أنتِ؛ لذا كرهنا كل أعدائك...

سيدة الوقت، ولا وقت إلا وقت الحساب.. أرسلتُ إليكِ بطاقة رأس سنة، اتفق العالم مرة أخرى ودون كلل على أنها سنة جديدة، وقلتُ لك:

- "رغم أن الأماني لا تُجدي فأنا أتمنَّى لك سنة سعيدة."

وكنتُ أعلم روتين سنواتكِ، ورتابة حظِّك، لكني ما كنتُ أعلم إصرارك على دعوتي سوى للتعازي والجنائز، فمتى تفرحين لكي آذن لجروحي بالالتئام؟

تلحّينَ أن أزورك في يناير.. للصبر حدود سيدتي، ونِصال يناير تهاطلت على نصال يناير.

يناير! بداية العام الميلادي، يا لهول يناير في جرادة!، أوان تضاعف غلة الموت، وأرى من الآن ـ وهول الجنائز يرعبني ـ أرى منجل الموت المفلول ينتظر الضوء الأخضر من يناير؛ لقطف رؤوس أينعتْ ولا ذنب ارتكبت.

يناير.. يا حجاج الفصول، يا فصل التيتيم والترميل والتثكيل، كفى اغتيالًا، كفاكَ تآمرًا مع "ثاناتوس" اللاهي بالحيوات، كم قبر خلف ذاك السور أودعناه وجهًا لا زلنا نراه! كم قبر لنا فيه صورة لا زالت تدبُّ، ولا زلنا نراها! فيا لنا من شهود ميتين.

"جبيلو" اسم تاريخي بجرادة، يعرفه الكبير والصغير، الميت والحي، يتأهب منذ شهر ديسمبر يحفر قبورًا عديدة لتوفير الجهد في رأس السنة، أو للتخفيف من ضغط حوادث المنجم المفاجئة المميتة.

هو وحده العليم بنسبة الحصاد في يناير بحكم المهنة، أفرغنا القبر من الثلج المتجمد، وو ارينا جثة الشهيد في ثلاجة شتوية، ولد في العراء، قدم كل حرارة بنيانه، وعاش في القر، ودُفن في ثلاجة. كل هذا لتنعم الذئاب بالدفء.

وذات اثنين من يناير ١٩٨٩م جلستُ بمقعد خلفي بالمحكمة، أنظر في هدوء مهيب لمن لبسوا العراء في زمن الأقنعة، وأنظر في خجل لذاتنا الجماعية.

****

تفحُّم

تُدْمنني المسافة بين البيت ومقر العمل.. أدمنتني حتَّى ضجر استحال لامبالاة قاسية، ما عادت تحفل بي المسافة التي حملتُها على كتفي طيلةَ سنوات.. ما عادت تغمرُني رائحة ترابها المُضرِب عن التضوَّع، ولو تحت وقع المطر.. أي موقف! ماذا جنيت؟

أتوجه كالرمح المصوَّب يقطع طريق "طايرت" نصفين؛ لتلتئم وراءه، وكأن ما حدث أي شيء.. أغوص في شارع جاكارتا، أتعمَّد غرز كعب حذائي بين جلده واللحم ـ لا يأبه بي ـ أدوس بشدة كي ألقاه متغيرَ السحنة حين أعود، فأعود وقد برئ السلخ والتأمتْ الخلايا إلا مني، إلاي إذن لا تمتصني حياة، وكل الميتات تُومئ لي بالترحاب؟!

أتلادنُ في استسلام، ألجُّ عشي، أحاول التفكير ـ لا جدوى ـ بالكاد أنهي تحاضيري وأفقأ بصري ككل ليلة بتصحيحات باهظة، سيداهمني الوقتُ صباحًا، فأنتصب وأتصوَّب كالسهم، سُرعان ما تغزوه جحافل العبث.

تجرُّني السلاسلُ والأصفاد نحو عملٍ بات يُناصبني العداء، وبتُّ أكنُّ له لبَّ الكراهية، وأسير في جنازته قبيل إعلان الوفاة.

آخر الكدح المستميت من كل يوم تودِّعني الوجوهُ البريئة الموضوعة على مسارح التجربة أمام أعيننا الذابلة..

فأعود مرَّة أخرى لأقطع طايرت نصفين؛ فتلتئم ورائي من جديد، وكأن شيئًا لم يحدث، ولا شيء في صدري يستغيث بأعلى صراخ، ولا نتوءات صدري المحشوِّ جُثثًا مشوية منذ أيام يختنق.

يضيق بي صدري وأضيق به، وأسأل: أما زال في نخب دمعكم بقية نسكبها على محنطات العامرية المفحمة، لعلها تسترجع لون التراب؟ من في بئر قلبه بقية دمع؟؛ لنذرفها دفعة واحدة ونتعلم شيئًا آخر غير البكاء.

ما كان ممكنًا أن أتحمَّلَ صدرًا محشوًّا من الجهتين برماد الأحياء المشويين، وبغبار الطباشير من عهد آدم والصلصال؛ لذا أنا ساعتها انفجرت،

تكتمتُ على العديد من الخيبات، وعلى استفزاز طايرت وجاكارتا لمدى تحمُّلي، لكن مشويات العامرية خربتني، وانفعالات الشارع استثارت فيَّ غضبًا مُبهمًا.. غضبًا لا يخضع لتشريح، كانت الوليمة قائمة على أشدها هناك، وكان وزر الخيانة ضاربًا على صدر بغداد أقدام الخسّة والعار، يغذيه فكر الظلمة والعتمة والجنون المرضي.

*****

فهرس الكتاب